الحمّامات الإسلامية العامّة في مصر وشمال إفريقيا خلال العصر العثماني
(دراسة في الملامح التخطيطية والوظيفية)

د. عادل المبروك المختار الفار
دكتوراه في الآثار الإسلامية
أستاذ مشارك بقسم الآثار / كلية الآداب والتربية / جامعة صبراتة

ملخص

تتميز العمارة الإسلامية بالتنوع والثراء المعماري والذي جاء ليساير الأغراض الوظيفية المتعددة التي تطلبتها الحياة العامة في المجتمع الإسلامي بمختلف جوانبها، وقد كانت الحمّامات العامّة أحد أهم المنشآت المعمارية في المدن الإسلامية وذلك لما تؤديه من أدوار دينية واجتماعية، هذا النوع من العمائر الذي لم يكن وليد الفكر المعماري الإسلامي، ولكنه كان من ضمن ما أخذته الحضارة الإسلامية ممن سبقها من الحضارات، لتخضعه للتغير الخلّاق مما أدى الى تكوين شخصية إسلامية فريدة في العمارة انسجمت فيها الجوانب التخطيطية بالجوانب الوظيفية، في هذا البحث سأتعرض لدراسة أهم الجوانب التخطيطية والوظيفية للحمّامات الإسلامية العامّة في مصر وشمال إفريقيا خلال العصر العثماني، هذا العصر الذي اختزل كل ما سبقه من محاولات تطوير طالت هذا النوع من المنشآت الخدمية في المجتمع المسلم .

Summary

Islamic architecture is characterized by diversity and architectural richness, which came to keep pace with the multiple functional purposes required by the public life in the Islamic society in its various aspects, and the public baths were one of the most important architectural facilities in Islamic cities, due to the religious and social roles they play, this type of architecture that was not the product of thought The Islamic architecture, but it was among what the Islamic civilization took from those who preceded it, to subject it to creative change, which led to the formation of a unique Islamic character in architecture in which the planning aspects were in harmony with the functional aspects. Africa during the Ottoman era, this era that reduced all the previous attempts to develop this type of service facilities in the Muslim community.

الحمّام - بتشديد الميم - العين الحارة التي يُستشفي بها، وحمّمت الماء سخنته، والحميم الماء الحار، ومنه قوله تعالى: (وسُقوا ماءً حميماً)[1]، والحمّام إصطلاحاً هو مكان يقصده الناس للاغتسال بدايةً بالماء الحار، ثم اتسعت دائرة اللفظ حتى أُستعمل الاستحمام لفظاً للدلالة على الاغتسال بأي ماء[2]، وهو حجرة أو مجموعة حجرات معدة لغرض الاغتسال، ومعنى الكلمة الحرفي هو المُسخِّن : من حمّى أي سخّن وهو مكان لتسخين الماء بغرض النظافة أو الاستشفاء[3]، وسمي الحمام بهذا الاسم لما فيه من كم الماء الحار، ولأن من يدخله يعرق أُخذ هذا من الحميم – وهو الماء

شديد الحرارة اعتماداً على الآية القرآنية سابقة الذكر – ومنها الحَمّـة بفتح الحـاء والميم المشـددة وهي عين مـاء حـارة تنبـع من الأرض عـادة مـا تستخدم لأغراض علاجية ، وأُخذ له هذا الاسـم أيضـاً من العـرق ، حيث أن العـرق يسـمى حميمـاَ على سـبيل التشـبيه – يقـال : اسـتحم الرجـل إذا اغتسل بالماء الحميم، ثم كثر حـتى أُسـتعمل للدلالـة على الاسـتحمام في كل ماء.[4]

أصل الحمام:

كمـا يـرى ابن خلـدون في مقدمتـه فـأن التحضـر والغـنى همـا الباعثـان الأساسيان لظهور العمران وتنوعه، ومن ضمن أنواع العمائر الـتي ظهـرت نتيجـة لـذلك الحمامـات، حيث أقبلت كثـير من الشـعوب المتحضـرة على بناءهـا وجعلهـا في مقدمـة المنشـآت المعماريـة الـتي اسـتحوذت على اهتماماتهم، وكثيراً ما أُتخذت الحمامات مقياساً لتحضـر الشـعوب وازدهـار الـدول، وسـمة بـارزة للمـدن المتحضـرة، وعـبر الفـترات المتعاقبـة كـان للحمامات أساليب وطرق متعددة في عملية بناءها تعود أصولها إلى نماذج الحمامات الأولى التي أُقيمت على سواحل بحر إيجة وقد حدد المختصون تاريخاَ تقريبياً لتلك البدايات يتراوح بين3000-1200 ق.م [5]

والمتابع لهذا الموضوع قد يلاحظ الافتقار إلى معطيـات معماريـة مفصـلة عن الطرق الإنشائية لبناء الحمامات الأولى، ويكاد يكـون كـل مـا كُتب عن هذا الموضوع عبارة عن استنتاجات نظريـة مُسـتقاة من التوزيـع المكـاني للفراغات أو الشكل العـام للقاعـات الكـبرى واعتمـاداً على بقايـا الأفـران الأرضية في بعض الآثار الباقية من تلك الفترة، أو أروقـة ودهـاليز الحـرارة التي استعملت لتسخين الحمامات في فترات أخـرى، حيث أن لكـل فـترة زمنيـة تقنياتهـا وتجهيزاتهـا الـتي تُـبين لنـا مـدى القـدرة على التحكم في المشـاكل التقنيـة الـتي تصـاحب تلـك المنشـآت من التحكم في إمـدادات المـاء إلى عمليـات الضـغط والضـخ داخـل المرافـق إلى طـرق التدفئـة والتسـخين والتحكم في التهويـة الرطوبـة والإنـارة، وهي مجتمعـة تُشـكل دلالات بالغة الأهمية في معرفة درجة النمو الفكري لكل مجتمع في فتراته المتعاقبة[6]، ولـو عـدنا إلى بعض الإشـارات التاريخيـة لعلمنـا أن مدينـة قرطاج احتوت على حمّامات يعود تاريخ إنشاءها إلى مـا بين 145-162م، وكـانت مجهـزة تجهـيزاَ متقنـاَ خاصـة فيمـا يتعلـق بنظم إمـدادات المـاء وتسخينه، حيث احتوت على قسمين، قسم خـاص بالرجـال وآخـر للنسـاء، وكانت المياه تصلها من الصهاريج الكـبرى والـتي لا تـزال مسـتودعاً لميـاه قرطاج العصرية، وتلك الحمامات كانت تنقسم إلى نوعين:- عـام وخـاص، فالعام منها هو ما يُبنى لطبقة العامة ويحـوى المرافـق الضـرورية الخاليـة من البهرجة والفخامة التي نجدها في النوع الثاني أي الخاص، والـذي كـان يُبـنى خصيصـاَ لطبقـة الأغنيـاء والحكـام والـذي يجهـز بـأحواض السـباحة

وقاعات الاستحمام وقاعات التدليك والحركات الجسمانية، ومن أشهر نماذجها حمامات قارجيليوسGargelus، وحمامات انتونان Antonan[7].

إذا فالحمامات كمؤسسات خدمية هي فكرة قديمة عرفتها كثير من الحضارات التي ازدهرت قبل الإسلام، فالرومان والإغريق وُجدت لديهم حمامات ذات مواصفات دقيقة غاية في الروعة، وكانت وظيفتها عندهم لا تقتصر على النظافة فحسب إنما كانت مكاناً عمومياً للحركات الجسمية والأغراض الإستشفائية، فكلمة (ثيرما) أو (تيرموس) terma مع اختلاف لفظ الكلمة في اللغتين الإغريقية واللاتينية كانت تشير إلى مؤسسات الاستحمام لديهم، وهي تعني حرفياً المسخنات أو المباني ذات الماء المسخن، وكانت كلمة باليسترا (palistra) عند الإغريق تشير إلى مكان لممارسة الرياضة إلى جانب عملية الاغتسال التي تتم داخله، ومعنى الرياضة هنا هو الحركات الجسمية أو ما يسمى التدليك أو المساج التي تتم عادة في الحمامات الساخنة، وربما كانت هذه الإضافة المتمثلة في الباليسترا توضح الفرق النوعي بين الحضارتين الرومانية والإغريقية في عدة أشياء منها ربما المرافق الملحقة بالحمامات وايضاً الطريقة المتبعة في عملية الاستحمام[8].

لقد دخلت الحمامات كمنشأة اجتماعية مهمة إلى حوض البحر المتوسط عندما ورث الرومان عن الحضارة الهلنستية مجموعة من التفاصيل الراقية كان من أبرزها الحمامات على اختلاف طبيعتها الخاصة منها والعامة، فالمنازل الرومانية كانت تزود في الغالب بحجرة أو أكثر كانت تنشأ إلى جانب المطابخ وتخصص للاستحمام وبها أحواض للغطس، مشكِّلةً بذلك ما يعرف بالحمامات الخاصة أو المنزلية balnearium، أو balineum، وهذا نمط من الحمامات الرومانية يختلف عن تلك التي كانت تُنشأ للعامة في المدن الرومانية الكبرى[9].

ويُعد الرومان أصحاب الريادة في اكتشاف التقنية العالية التي أصبح يعمل بها الحمام البخاري منذ ذلك الوقت وحتى الآن، عندما استطاع شخص يدعى سيرخيو(Sergio) التوصل إلى طريقة تمكنه من تسخين أرضية الغرف وذلك من خلال إقامة فرن تحت الأرض تستقر فوقه غلايات كبيرة، بواسطة إقامة دهاليز خلف الجدران وتحت الأرضية أو ما يسمى اصطلاحاً باسم (hipocauseam) أمكن التحكم باتجاه سير الهواء الساخن المنطلق من الغلايات ليسلك تلك الدهاليز خلف الجدران والأرضيات والمحافظة على غرف الاستحمام المتعددة من وصول الشوائب إليها والمتمثلة في الأدخنة والمواد المتطايرة من الاشتعال وغيرها[10].

وتعددت غرف الحمام في المدن الرومانية بحسب الطقس السائد في كل منها على حدة، ففي المدن الباردة كانت تصل إلى أربعة غرف وهي غرفة خلع الملابس apodyterium والغرفة الباردة frigidorum والغرفة

الدافئــة tepidarium، والغرفــة الســاخنة caldarium[11]، أمــا في المنــاطق الدافئة فقد دمجت غرفة خلع الملابس مع الغرفة الباردة وأصـبحتا تلعبـان نفس الدور وبذلك أصبح الحمام يتكون من ثلاث غرف فقـط وهي البـاردة والدافئة والساخنة، هذا من الناحيـة الوظيفيـة، أمـا على صـعيداً آخـر فقـد كانت ترفق تلك الحمامات في الغالب بملاحق تكميلية لأغراض ترفيهيـة أو استشفائية أو خدمية ضرورية منها القاعات الخارجية والتي يتم منها تغذيـة النـيران بـالحطب لتسـخين المـاء وقاعـة الألعـاب shaeristerum)) والـتي تمارس فيهـا مباريـات المصـارعة بين الـرواد بعـد دهن أجسـامهم بـالزيت والشمع[12]، هذا إلى جانب المسبح أو المغطس والذي تجرى فيهـا تمـارين السـباحة[13]،أمـا طـرق التسـقيف تلـك الحمامـات فكـانت عبـارة عن أقبيـة برميلية في قاعاتها المغلقة، وكـانت المرافـق كلهـا تظهـر وقـد اصـطفت بنفس الحجم تقريباَ، وقد سعى أباطرة روما إلى توفير مـا يقـرب من 12 حماماً كأماكن تتوفر فيهـا وسـائل الترفيـه لأبنـاء الشـعب فيمـا بين 10 ق.م وعام 324م, ومن أهم تلك الحمّامات في روما حمّامات نـيرون وحمامـات تيتس وتراجان وكركلاّ ودقلـديانوس وقسـطنطين، لم يبـق منهـا في الـوقت الحـالي إلا حمّـامين همـا:- كـركلاّ، ودقلـديانوس[14]، وقـد اعتـنى الأبـاطرة الرومان بتشييد الحمامات العامة في أقاليم الإمبراطورية الرومانيـة خـارج روما أيضا، ففي الجزائـر مثلاً كـان يوجـد أكـثر من ثلاثين حمامـاً, وهنـاك أيضـا حمامـات في الإسـكندرية أهمهـا حمـام تـابوزيريس ماجنـا بأبوصـير وحمام كوم الدكة في المنطقة التي تحمـل نفس الاسـم, إلى جـانب عـدد من الحمامـات الأخـرى في نفس المنطقـة بُـنيت إبـان العصـر الرومـاني كحمام كليوباترا وحمـام ماريـا وأبومينـا وغيرهـا, وكلهـا حمامـات منـدثرة، ولكن بقايا المعمـار تشـير إلى الازدهـار والفخامـة الـتي كـانت عليـه إبـان العصر الروماني وإلى التقنية العاليـة المسـتخدمة بتلـك الحمامـات وأيضـاً الناحية الجمالية والزخرفية التي تميزت بها تلك المنشآت الرائعة[15].

وفي ليبيـا بـرزت العديـد من الحمّامـات الـتي اشـتملت عليهـا الآثـار الرومانية الباقية في عدة مدن نذكر منها مدن لبدة ومدينـة صـبراتة، ففي مدينة لبدة الأثرية تقع حمامات هادريان وهي حمامات كبيرة في مسـاحتها تحتل بالإضافة الى توابعها ما يقـرب من ثلاثـة هكتـارات، وتعـود إلى فـترة حكم الإمبراطور الروماني هادريان 117-138م[16]، أما في مدينـة صـبراتة فقد وجدت بقايا حمامات رومانية عُرفت بحمامات البحر نظراً لقربها منه، امتازت بالأرضيات الفسيفسائية الملونة التي تحمل رسومات عن مواضـيع الاسـتحمام والأدوات المسـتعملة في هـذه العمليـة, كمـا وجـدت أيضـاً حمّامـات أخـرى أصـغر بهـذه المدينـة وهي الحمامـات المعروفـة باسـم حمامات اقيانوس[17] وامتازت أيضاَ بأرضياتها الفسيفسائية الجميلة[18].

ومن ناحية الانتقال الوظيفي داخل الحمامات الرومانية خارج مدينة روما، فقد وافق تماماً ما كان متبعاً داخلها، وربما انتقل بنفس النمط إلى الدول المجاورة، ففي الفترة التي سبقت ظهور الإسلام انتشرت الحمامات في المدن والحواضر انتشاراً كبيراً, وكانت في أغلبها تحاكي الحمامات الرومانية والبيزنطية في أغلب تفاصيلها العامة والخاصة، ففي العهد البيزنطي والساساني حافظت الحمامات في المنطقة العربية على النسق الروماني القديم مع مراعاة تخصيص أوقات لاستحمام النساء وأخرى للرجال، وذلك لأن ظهور الدين المسيحي آنذاك كان باعثاً ومنادياً إلى الخصوصية والحشمة وعدم الاختلاط بين الجنسين في مثل تلك المنشآت، أما من حيث التخطيط فلم يتغير تقسيم الحمام وعناصره عن المخطط الروماني القديم[19].

وفي العمارة الإسلامية يُعد الحمام كفكرة وكنموذج معماري مؤسسة دخيلة، إذ أن المسلمون الأوائل إبان بداية البعثة هم عرب خرجوا من الصحراء, وفي حياتهم البدوية التي عاشوها هناك وجغرافية مناطقهم التي تفتقر بدرجة كبيرة إلى مصادر المياه الغزيرة لم يألفوا استعمال الماء الغزير, وإن كانت تعاليم الدين الإسلامي تدعوا دائماً إلى الغسل والطهارة والوضوء، ولكن شح مصادر المياه لديهم ربما كانت العائق أمام اتخاذ الحمامات العامة بتقنيتها التي عُرفت لاحقاً كمؤسسة عامة وخدمية في تلك الفترة[20], ويبدو أن ذلك أصبح واقعا ملموساً بعد توسع رقعة الدولة الإسلامية في مختلف الاتجاهات، فعندما اطلع المسلمون على ثقافة البلدان المفتوحة وأحوال عمرانها قاموا بتبنّي فكرة الحمام العام بتخطيطه البيزنطي –الروماني، وادخلوه إلى العمارة الإسلامية وأصبح منذ ذلك الحين يتبوأ مكانه لم يحظ بها حتى في عصور ازدهاره في المدن الرومانية بالذات، وقاموا بنشره على نطاق واسع في المدن الإسلامية التي بنيت لاحقاً، وأحدثوا ثورة في مفهوم فكرة الحمام، فأصبح الحمام متاح للجميع بعد ما كان للأثرياء أو الرياضيين والنخبة، وأضحى وظيفياً أي لأداء حاجة والقيام بواجب ديني بعد ما كان للتسلية والمتعة، وأمسى للطهارة والنظافة بالدرجة الأولى بعد ما كانت النظافة ليست رأس أولوياته[21].

في البداية استعمل المسلمون القديمة التي وجدوها قائمة في الأقاليم المفتوحة، والتي تمثل أغلبها في الحمامات الرومانية بتكويناتها الوظيفية وتقسيماتها التي تكلمنا عليها سابقاً، فلم يحدثوا تغيرات تذكر عليها، وكان ذلك في المدن المفتوحة والتي كانت قائمة ومزدهرة قبل وصول الإسلام إليها, وتُعد بلاد الشام نموذجا حياً لذلك حيث وجد بها المسلمون الفاتحون كثير من الحمامات البيزنطية في مدن عديدة كحلب وتدمر وبُصري وأنطاكية وغيرها، ولكن مع تعلق المسلمون بهذه المنشأة المهمة كان

لزاما عليهم نقلها إلى مدنهم الجديدة التي قاموا ببنائهـا إبّـان حركـة الفتح الإسلامي، ومن هنا بدأت مرحلـة جديـدة في بنـاء الحمامـات قوامهـا فكـر المعمار الإسلامي الذي وإن أتخذ النموذج الروماني القديم أسـلوباَ لـه في بنـاء الحمـام إلا أن الأهميـة والاسـتخدام وقليـل من التحـويرات هي الـتي صاغت لنا ما يعرف بالحمامات الإسلامية، التي انتشـرت بشـكل كبـير في المدن الإسلامية المستحدثة، حيث ظهر البناة والمهندسـون المتخصصـون في عمارتها وزخرفة جدرانها وتجميل أقسامها بشكل يجعلنـا قـادرين على القـول أن عمـارة الحمامـات الإسـلامية كـانت وعـاء افـرغ فيـه أولئـك المهندسون والفنانون والبناة كل طاقاتهم وإبداعاتهم، وتشير المصادر إلى أن الحمامات شيدت مباشرة بعد انطلاق حركة الفتوحـات الإسـلامية، وأن أول حمام عربي إسلامي كُشف عنه كـان في مدينـة الكوفـة ثـاني المـدن الإسلامية نشأة بعد مدينة البصرة[22]، حيث وِجدت بها بقايا حمامـات عامـة في قسمها الشمالي الغربي بجانب المسجد ودار الإمارة[23]، وأيضـاَ حَـوَت مدينة الفسطاط على حمامات عامة عند بناءها على يـد عمـرو بن العـاص عام 21هـ/641م، فقد وجدت بها بقايا حمام صـغير يعـود إلى تلـك الفـترة عرف بحمام (الفـار) نظـراَ لصـغر حجمـه بالمقارنـة مـع الحجم الاعتيـادي للحمامات الرومانية المعروفة في مصر وغيرها من الأقاليم الأخرى[24], ثم توالى بعد ذلك تشييد هذه الحمامات في كل المـدن الإسـلامية الـتي بناهـا المسلمون على امتداد رقعة الدولـة وأصـبحت من مرافـق الحيـاة العامـة المهمة, واكتسبت بمرور الوقت أهمية كبرى في نفوس سكان تلك المـدن حتى أضحت مجالاً تـتركز فيـه من الأحـداث الاجتماعيـة كـالأفراح والأتـراح والسهرات وعقد الصفقات وغيرها، وتزايدت إعداده في تلك المدن بشكل يدعو إلى التعجب طبقاً لما أقره كثير من الرحالة والمـؤرخين الـذين زاروا تلك المدن [25].

الحمامات الإسلامية في العصر العثماني :

في الجانب المعماري كان للدولة العثمانية منذ قيامها سمات ميزتهـا عن غيرها, فقد عمل السلاطين العثمـانيون على تشـيد المجمعـات المعماريـة التي تتكون من المسجد أساساً ويجمع حولـه لفيـف من المبـاني الخدميـة كالخانـات والبيمارسـتانات والزوايـا والمطـاعم والأضـرحة والحمامـات[26]، وقد كان أول ما أُنشأ من تلك التجمعات مجمّع السلطان محمد الفـاتح في استانبول الذي أشارت المصادر أن عدد الحمامات التي أنشـأت في عهـده بمختلف المدن قـد بلـغ نحـو 59 حمامـاً، وكـذلك مجمـع السـلطان بيازيـد الثـاني بمدينـة أدرنـة والـذي كـان يشـمل حمامـاً إلى جـانب المنشـآت الأخـرى[27]،وبلغت تلـك الحمامـات شـأنها بـاقي أنـواع العمـائر قمـة الرقي والروعة نظراً للاهتمام البالغ الـذي أولاه السـلاطين لهـذه المنشـأة المهمة، وقد ساعد على ذلك بروز العديـد من المهندسـين الـذين أسـهموا

كثـيراً في رقي العمـارة العثمانيـة كـان أبـرزهم (سـنان باشـا)[28] والـذي ظهرت إبداعاته في تصميم أكثر من 33 حماماً تركياً كانت ملحقـة بمبـاني وتجمعات صممها طوال حياته في عدة مدن تركية، وقد أثرت نمـاذج تلـك الحمامات على نظيراتها من الحمامـات الأخـرى الـتي أقيمت في الأقـاليم التابعة للإمبراطورية العثمانية حتى أصبح الحمام الإسلامي في هذه الفترة يعرف بالحمام التركي والذي مثل النموذج الأصل المتبع في كافة الأقــاليم الإسلامية[29]، ورغم أن المعماريين الأتراك أيقنوا منذ البداية أن الحمّامـات بالذات لن تعطيهم فرصة كبيرة للابتكار والتنويع، وأنه لم يكن هناك بُد من تقبّل الشكل المألوف في ترتيب الأقسام المختلفـة، إلا أنهم حـاولوا خلـق بعض الأشـكال الجديـدة من خلال إيجـاد حلـول لبعض المشـاكل الملحـة والدائمـة والمتمثلـة في توزيـع الأقسـام وتتابعهـا لزيـادة الأداء الـوظيفي, وأيضـا الابتعـاد عن المركزيـة في التخطيـط بـالتوزيع المتسـاوي للقبـاب النصـف كرويـة على عـدة أجـزاء من الحمـام, وبالتـالي اسـتطاعوا خلـق شخصية خاصة بالحمام التركي تختلف إلى حد ما في الأداء الوظيفي على وجـه الخصـوص عن مـا كـان سـائداً في الأقـاليم الإسـلامية الأخـرى، كمـا اسـتطاعوا في جـانب آخـر نشـر هـذا النمـوذج في بعض دول أوربـا- في الجنوب والشرق- بنفس التفاصيل ,ولعل النماذج القائمة إلى حـد الآن في تلك المناطق تقف دليلاً على ذلك[30].

لو عرّجنا على أهم نماذج الحمامات التركية في البلد الأم لوجدنا حمامات (بورصـة) على رأسـها، حيث عُـرفت هنـاك بالفخامـة والروعـة واسـترعت كثيراً من اهتمام الولاة في الفترات المتعاقبة, فمازال أغلبها يعمل إلى حد الآن بصورة جيدة، هـذا بالإضـافة إلى الحمامـات التركيـة في دول البلقـان وهي التي تحمل الطابع التركي المعروف، كما وجدت حمامـات تركيـة في المجر لعل أهما حمام (روداش) والذي بناه (صوقللي مصـطفى باشـا) في مدينة (بوده) عام 1566م وهو حمام رائع يحمل مزايا تخطيطية وزخرفيـة غاية في الروعة مازال يعمل إلى يومنا هذا[31].

وعموما فأن الحمامات التركية التي شيدت في تركيا وأوربا كـانت تتمـيز عن مثيلاتهـا الـتي أُنشـأت في المنـاطق العربيـة الـتي دخلت إلى النفـوذ العثماني، وذلك في عدة جزئيات لعل أبرزهـا هـو الـثراء الزخـرفي الكبـير والمتمثل في الكم الهائل من النقوش والألوان المتنوعة، وربما كـان ذلـك مستمداً من رغبة الفنان التركي في محاكـاة النمـاذج الأولى الرائعـة الـتي ظهرت في العصور الإسـلامية الأولى الـتي ازدهـرت فيهـا الفنـون وحركـة الزخرفة على الجدران بشكل عام وجدران الحمامات بشكل خاص، وأيضـا ربمـا يكـون مـرد ذلـك إلى الخـبرة الـتي اكتسـبوها من البُنـاة والفنـانين البيزنطيين والذين كان لهم باع طويل في هذا المجال، ولعـل الـدليل على ذلك يكمن في جل النماذج التي بُنيت في تركيا ودول أوربـا الـتي خضـعت

للعثمانيين دون تحديد نموذج بعينه، بيد أن الملفت للنظـر هـو ظهـور بعض الحمامات هنـاك في شـكل مجموعـتين متمـاثلتين من المبـاني المتلاصـقة خصـص أحـدهما للرجـال والآخـر للنسـاء ويحملان غالبـاً نفس التفاصـيل الإنشـائية ونفس الملحقـات[32], وقـد أُتبعت هـذه القاعـدة في كثـير من الحمامات والتي احتوتها بعض المجمعات السـلطانية ومن أمثلتهـا (حمّـام محمـود باشـا) الـذي بُـني عـام 871هـ/1466م ليكـون أقـدم حمـام في استانبول، وكذلك حمّامات مجمع السلطان بيازيد التي ترجـع إلى 10 هــ / 16 م, وحمّام (خصكي) المزدوج الذي بُني عام 960هـ/1553م[33] وغيرها كثـير، ومن الأشـياء المهمـة الـتي تسـترعي الانتبـاه في نمـاذج الحمّامـات التركية هناك التركيز على المخططات التي تجمع بين المركزية والأشـكال الأخرى التي تعتمد على الاصطفاف بشـكل متتـالي لأقسـام الحمـام، وهي الأشكال نفسها التي عُرفت سـابقاً في العهـد المملـوكي خصوصـاً في بلاد الشـام، ولكن الملاحـظ هنـا أن التركـيز في المركزيـة انتقـل من الغرفـة الدافئـة في النمـاذج المملوكيـة إلى غرفـة تغـير الملابس في النمـاذج العثمانية، حيث حظيت في أغلب الحمامـات هنـا باهتمـام خـاص من خلال التركيز في إقامة القبة الرئيسية، وايضاً في الناحية الزخرفية الـتي فـاقت بها أقسام الحمام الأخرى، ولكن في بعض النمـاذج نجـد أن المشـلح بهـذا الشكل لا تنتشر حوله أقسام الحمام الأخرى مما يكسر الانطبـاع بمركزيـة المخطط ويجعله لا يعـدو كونـه مـدخل الى أقسـام الحمـام الأخـرى الـتي شيدت بشكل متتالي يتم الـدخول إلى أي منهـا من خلال القسـم السـابق له[34].

وفي الأقـاليم العربيـة ذات التبعيـة للدولـة العثمانيـة اهتم الـولاة بإقامـة الحمامات العامة بشكل كبير، ففي بلاد الشـام وتحديـداً في دمشـق لعبت الحمّامـات دوراً اجتماعيـا هامـاً، إذ ضـمت الى جـانب مكونـات الحمـام الوظيفية التقليدية قاعة إضافية للاستقبال تتميز باتساعها أُستعملت مكانـاً للاجتمـاع في المناسـبات الاحتفاليـة ولتبـادل الآراء السياسـية أو لعقـد الصفقات التجاريـةً، بالإضـافة لكونهـا تسـمح للنسـاء بفرصـة الخـروج من المنزل وقضاء أوقات ممتعة، لما يصحبها من تحضـير للأطعمـة الخاصـة أو حفلات الغناء والرقص خاصة في المناسبات الاجتماعية الهامة قبل الـزواج أو بعد الولادة، ويعتبر حماميّ االخياطين **شكل رقم 1 (أ، ب)** الخراب **(شـكل رقم 2)** من أهم نمـاذج هـذا المخطـط من الحمامـات الـتي بـنيت في العهـد العثماني، كمـا وجـدت أيضـا حمامـات القصـور الـتي لم تختلـف كثـيراً في مكوناتها عن الحمامـات العامـة ثلاثيـة المرافـق، حيث يُعتـبر حمـام العظم نموذجا حياً على الحمامات التي حافظت على رونقها ومكوناتهـا الأساسـية دون المساس بـأي جـانب منـه وتحـول حاليـا إلى متحـف شـعبي[35]. **(شـكل رقم3)**

أما مصر والتي دخلها العثمـانيون عـام 923هـ/1517م على يـد السـلطان سليم الأول فقد كانت الحمامات العامة من ضمن المنشآت الخدمية التي دأب الـولاة على إقامتهـا تحت رعـايتهم، ولكن الشـيء المهم الـذي تجـدر الإشارة إليـه بدايـةً أن حمامـات مصـر في هـذه الفـترة شـأنها شـأن جـل العمـائر الأخـرى لم تتبـع الطـراز الـتركي وظلت محافظـة على طابعهـا المحلي الموروث، فعمائر القاهرة العثمانية الباقيـة الآن يصـل عـددها إلى نحو 295 أثراً ، بني 252 منها وفق الطراز المحلي وبذلك تكون نسـبة مـا بني منها وفق الطرز العثمانية الوافدة أقل من 15%, وهي نسبة منخفضة جداً ساهم فيها عدة عوامل أبرزها سياسة الدولة العثمانية في مصر آنذاك والـتي الـتزمت بإبقـاء الوضـع على مـا هـو عليـه من محافظـة المجتمـع المصري على تقاليده الإسلامية في كل النواحي، وهذا يعني أن العثمانيون لم يفرضوا ذوقاً أو طراز معمارياً خاصاً بهم عند إقامتهم للمنشـآت العامـة والخاصة، كذلك فإن مصر بالتحديـد كـانت زاخـرة بالبنـائين المهـرة الـذين ورثوا المهنة من أسلافهم بكل تفاصيلها وأسرارها وبرعوا في ذلك إلى حد كبير[36], وربما كان ذلك عاملاً مهماً للمقاومـة الشرسـة الـتي أبـداها البُنـاة المحليين لدخول المدارس والتقاليـد المعماريـة للقـادمين الجـدد، ولم تتح لهم إلا مساحة بسيطة لإنجاز بعض العمائر وفق طـابعهم المعمـاري الـذي عرفوه في بلادهم وفي بعض الأقاليم التي خضعت لهم نظراً لقلـة الحنكـة والخبرة المعمارية أو لأسباب أخرى تتعلق بمواد البناء أو الظروف الماديـة في تلك الأقاليم[37] .

ومن نمـاذج الحمامـات في هـذه الفـترة بمدينـة القـاهرة هنـاك ثمـان حمامات باقيـة بُـنيت كلهـا وفـق الطـراز المصـري المحلي والـذي يعتمـك أساساً على وجود المدخل الرئيسـي في الواجهـة الرئيسـية للحمـام بحيث يكون ممراً منكسراً يـؤدي بـدوره الى الـبيت الأول أو مـا يُعـرف بالمسـلخ ومنه الى باقي الأجزاء الرئيسية للحمام، بينما يوجد مدخل آخـر يـؤدي الى الأقسام الخدمية والمتمثلة في موقد التسخين وبئر المياه الخاص بالحمـام وغرفة تخـزين الحطب وغيرهـا، ومن أهم أمثلـة هـذا الطـراز في القـاهرة حمام(سنان باشا)**شكل رقم 4** والذي بني بين عـامي 978-979هـ /1571-1572م، وهـو من الحمامـات المزدوجـة المكونـة من حمـامين أحـدهما للرجال وأطلق عليه اسـم (الحمـام الكبـير) والآخـر للنسـاء وأطلـق عليـه (الحمام الصغير) [38]، أما في الإسكندرية فقد بلغ عدد الحمامات في العهد العثماني نحو عشرة حمّامات تركزت كلها في المدينة القديمـة من أبرزهـا (حمـام الـذهب) الـذي بـني في أواخـر القـرن 10هـ/16م وفـق الطـراز المحلي ولكنـه فقـد كثـير من ملامحـه الرئيسـية نظـراً لعمليـات الصـيانة والإضافة التي تعرض ليها حديثاً[39]**شكل رقم 5** ، وفي صعيد مصر العديد من الأمثلة لنماذج الحمامات في هذه الفترة منها حمام علي بك بجرجا والـذي

أنشـأه على بـك الفقـاري حـاكم مدينـة جرجـا(1043-1063هـ /1633-1653م) بمنطقة القيسارية التي تعد جزء من الامتـداد العمـراني للمدينـة الذي اشتمل الى جانب الحمام على العديد من المنشآت الأخرى والتي لم يبق منها الآن سوى الأطلال[40]**شكل رقم 6**، وكذلك حمـام قنـا والـذي ويعـود تـاريخ بنـاءه إلى مـا بين نهايـة القـرن 18 وبدايـة 19 كمـا تـدل عناصـره المعمارية[41]، وفي مدينة رشيد على البحر المتوسط ذكـرت الوثـائق الـتي ترجـع إلى العصـر العثمـاني بهـا العديـد من الحمامـات، وذلـك في وثـائق المعاملات الرسمية كالوقف والإيجار، ولكن كثير من تلك النمـاذج منـدثرة حالياً كحمام يوسف القبودان وحمام الخواجا وحمّام النحّاس وحمّام الشيخ محمد البسيوني وحمّام المالح وحمام الملكة خاتون, بيد أن الحمام الباقي الوحيد في رشيد هو (حمام عزّوز).[42]

أمـا الحمامـات في تـونس والـتي تعـود إلى العهـد العثمـاني فهي ذات أشكال مختلفة من حيث الطرز والمساحة ولكنها كثيراً ما تتشابه من حيث التصميم الداخلي مـع نظيرتهـا في الأقـاليم ذات التبعيـة للدولـة العثمانيـة والتي اعتمدت على اللامركزية في التخطيط وتتابع التكوين المعمـاري من البارد الى السـاخن مـروراً بالغرفـة الدافئـة، كمـا أنهـا أخـذت بعض ملامح الحمّامـات الحفصـية القديمـة الـتي اسـتقت بـدورها بعض تفاصـيلها من الحمّامات الرومانية، وتحديداً ما يتعلق بغرفة (العرّاقة) الواقعة بين الغرفة الساخنة والموقد والتي تكون عادةً اكثر سخونةً من الغرف الساخنة، هـذه الصفة انفردت بها حمّامات تونس دون غيرها، ولعل أشهر تلـك الحمامـات (حمـام صـاحب الطـابع) الـذي تم بنـاءه عـام1195هـ/1813م، وهـو تـابع لمجمع معماري متكامل أقامه أحـد الأثريـاء (يوسـف صـاحب الطـابع) في منطقة بـاب سـويقة في مدينـة تـونس القديمة **شكل رقم 7**، وكـذلك(حمـام القشاشين) والذي قام ببنائه الداي أحمد باي الذي تولى حكم تـونس عـام 1257هـ/1841[43]**شكل رقم 8**، وفي الجزائـر وجـدت العديـد من الحمامـات الإسـلامية التقليديـة الـتي يعـود أغلبهـا إلى العهـد العثمـاني، من أبرزهـا نماذجها حمام سيدنا وحمام دار عبد اللطيف اللـذان يعـودان لفـترة أوائـل القرن 18 م، أمـا حمامـات القـرنين 18-19 م، فتتمثـل في حمـام سـيدى بوقدّور وحمام قصر حسن باشا وحمام دار عزيزة وحمام قصر الباي[44].

وفي ليبيا التي أصـبحت تابعـة للحكم العثمـاني ابتـداء من عـام 958هـ/ 1551م تُشـكل الآثـار العثمانيـة - والـتي تـتركز على وجـه الخصـوص في مدينة طرابلس - السواد الأعظم من الآثار الباقية في البلاد ككل، فالمدينة القديمة بها تحمل كثير من مزايا الطراز العربي الأصيل والطراز العثمـاني اللـذان يتشـكلان ويمتزجـان ليكونـا نسـيجاً متناسـقاً إلى حـد بعيـد، ومن الطبيعي أن تكون الحمامات العامة أحد المنشـآت المعماريـة الـتي حملت كثير من خصوصـيات الحمامـات الإسـلامية الـتي عُـرفت منـذ دخولهـا الى

عمارة المدن الإسلامية في العصر الأموي في مصـر وبلاد الشـام، وكـذلك الحمامات العثمانية داخل وخارج تركيا من ناحية عدم وجود فرق كبـير في الانتقال الوظيفي داخلها، فاعتمادها على التدرج في عملية الاسـتحمام من الغرفـة البـاردة الى الدافئـة فالحـارة هـو الأسـلوب المعتـاد فيهـا، كـذلك اعتمادها على نظام القاعة السـاخنة الـتي تعتمـد في توليـد تلـك الحـرارة على البخار الناتج عن وضع المياه في درجة الغليان.

احتـوت المدينـة على ثلاث حمامـات عامـة، منهـا اثنـان في حالـة جيـدة، ومازالا يؤديان وظائفهما حتى الآن نتيجة الاهتمام وإجراء عمليـات الصـيانة الدورية لهما منذ إنشاءهما تقريباً، هذان الحمامان هما: حمام درغوث أحـد أهم الانجازات المعمارية بالمدينة، والـذي تم بنـاءه على يـد اسـكندر باشـا عام1013هـ/1604م[45]**شـكل رقم 9**ـ وحمّام الحلقـة في زنقـة سـوق النسي المُنشأ في أواخر العهد العثمـاني في ليبيا والـذي يشـبه في تخطيطـه الى حد كبير الحمام السابق **شـكل رقم 10**، أما الثـالث فهـو الحمـام الكبـير الـذي يعتبر من بين العمـائر الـتي أنشـأها الـوالي النشـط معمارياً عثمـان باشـا الساقزلي 1059-1083هـ/1649-1672م،عندما جعله وقفـاً على مجمعـه المعماري الذي يضم إلى جانب الحمام مسجداً ومدرسة وكُتّاباً ومقبرة[46]، وعلى أرض الواقع فجل أجـزاء هـذا الحمّـام منـدثرة تقريبـاً ولا يوجـد منـه حالياً إلا أجزاء من الغرفة الباردة والتي تكشف تفاصـيلها الباقيـة أنـه كـان على قدر كبير من الثراء المعماري والزخرفي، بيد أن عدم وجود دراسـات قديمة لهذا الحمام بالذات يجعلنا نفتقر الى معلومات مفصلة ودقيقـة عنـه إبّان فترة ازدهاره، وهذا كان المصير نفسـه الـذي تعرضـت لـه الحمامـات التي أنشأت في تلك الفترة خارج أسوار المدينة، فلم يبـق منهـا إلا ذكرهـا وأهمها (حمـام قـرجي) و(حمـام مـيزران)، وهي لا تختلـف مـع الحمامـات الباقية في المدينة من ناحية تخططيها وتقنية عملها[47].

وبالعودة الى الحمامين الباقيين (درغوث والحلقـة) نجـد أنهمـا على قـدر كبير من الشبه المعماري والزخرفي، مما يؤكد أن بُناة حمام الحلقـة وهـو الأحدث بينهما قد اتخذوا من حمام درغوث نموذجاً حاولوا تقليده في كثـير من التفاصيل، مع الإشـارة الى أن كلاهمـا يشـبه الى حـد كبـير الحمامـات التركية سواء كانت في البلد الأم أو في الولايات التابعة للدولـة العثمانيـة، وأن الفرق بينها كان كما أشار كثير من الدارسـين هـو الحجم، حيث كـانت الحمامات الطرابلسية عبـارة عن نسـخة مصـغرة من الحمامـات التركيـة، هذا الفرق الذي أملته على المصـممين عـدة اعتبـارات لعـل أبرزهـا صـغر حجم المدينة واكتظتظها بنائياً الأمر الذي لم يسـمح لحماماتهـا بـأن تكـون أكبر من ذلك .

أما فيما يخص الجانب الزخـرفي للحمامـات الطرابلسـية فيمكن اعتبـاره متواضعاً الى حد كبـير أذا مـا قـورن بغـيره من حمامـات الفـترة العثمانيـة بالدول المجاورة مثلاً، فالزخرفة الرئيسية هنا تتمثل في بلاطات القيشاني

الـتي غطت جـوانب من حوائطهـا وكـانت ذات غـرض وظيفي الى جـانب أغراضــها الزخرفيــة، وكــذلك عنصــر النــافورة الوســطية الموجــود في النموذجين الباقيين والـذي يعتـبر من العناصـر الزخرفيـة المهمـة في جـل الحمامات الإسلامية بمختلف مراحلها الزمنية، مع الإشارة الى أن العناصـر الزخرفية الموجودة حالياً في الحمامين الباقيين ليسـت أصـلية، وإنمـا هي عناصر حديثة حاول مشـروع صـيانة المدينـة القديمـة في صـيانته لهمـا أن يحاكي بها العناصر الأصلية التي اندثرت ولم يعد وجود .

الأدوار التي يقوم بها الحمام العام في المدينة الإسلامية:

ارتبط الحمام بعدة نواحي مهمـة داخـل المجتمعـات الإسـلامية، وأصـبح قاسـماً مشـتركا في حيـاة النـاس، فمن الناحيـة الاجتماعيـة كـان الحمـام منتدى عاما تُقام فيه حلقات السهر وتبادل الحديث، وكـذلك بعض مراسـم المناسبات الاجتماعية كالأفراح والمـآتم أحيانـاً وكـذلك الاحتفـال بالمواليـد الذين تقام لهم العديـد من الطقـوس داخـل أروقـة الحمـام، ومن الناحيـة الصحية كان الحمام مكاناً لعلاج بعض الأمراض، ومن الناحية الرياضية كان الحمام مكاناً لممارسة بعض التمارين الرياضية، وفيمـا يلي نسـتعرض أهم الأدوار الجانبية التي يقوم بها الحمام العام :

الحمام والدور الاجتماعي :-

لقد كان للحمام العام دور مهم في أطوار الحياة الاجتماعية داخل المــدن الإسلامية، حيث شكّل مؤسسة اجتماعيـة كـانت بمثابـة منتـدى يلتقي فيـه الأصدقاء والخلاّن ليقضوا أوقاتاً في تجاذب أطـراف الحـديث حـول الأمـور المختلفة[48]، ولم يكن ذلك مقتصراً على الرجـال فقـط وإنمـا كـان للنسـاء أيضاً نصيب، فكثـير من الحمامـات الإسـلامية كـانت تعمـل بمبـدأ التنـاوب ليكون مخصصاً للنساء في أوقات معينة وللرجال في أوقات أخرى، وأحياناً كانت تُشيد الحمامات المزدوجة والمكونة من حمامين متلاصـقين أحـدهما للرجال والآخـر للنسـاء، فنسـوة الحي لم يكن يـذهبن إلى الحمـام فـرادي وإنمـا كن يتجمعن في مكـان معين بحكم الجـيرة أو الصـداقة ومن هنـاك يقصــدن الحمــام، وعنــد وصــولهن للحمــام يــدخلن في تبــادل الأحــاديث والتعارف فيما بينهن وتنـاول الأطعمـة والمشـروبات والـتي ارتبـط بعضـها بالحمام حيث كانت النسوة تعد أكلة بعينها عند الـذهاب إلى هنـاك وأحيانـاً يتعدى الأمر ذلك، فتذهب بعضهن إلى الحمام للبحث عن عـروس لأبنهـا أو عرض ابنتها للنسوة الباحثات عن زوجات لأبنـائهن[49]، ممـا يجـذّر دور هـذه المنشأة في توطيد العلاقات الاجتماعيـة بين أبنـاء المجتمـع الإسـلامي من مجرد صداقة أو جيرة إلى روابط أخرى أقـوى وأمتن وأسـمى وهي علاقـة الدم والمصاهرة، كمـا يرتبـط الحمـام بالعديـد من المناسـبات الاجتماعيـة والـتي تـأتي احتفـالات الـزواج في مقـدمتها, فـذهاب كلا العروسـين إلى الحمام قبيل الزواج يعتبر أمراً شائعاً في جل المجتمعات الإسلامية يحرص

عليه الناس بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية وحالتهم المادية، حيث أنـه غالباً ما يخصص يوم محدد لـذلك يسـمى بيـوم الحمـام أو (زفـة الحمـام)، فتخرج العروس في موكب كبـير ترتـدي فيـه أبهى وأحلى الثيـاب والحُلي، تعلو فيه أصوات الغناء والزغاريـد احتفـالاً بالمناسـبة، يجلبـون معهم عـادة أداوت التجميل والزينة ويقمن بالاستحمام والتزين والتعطر وإزالـة الشـعر الزائـد من أجسـامهن ليخـرجن من الحمـام بكامـل أنـاقتهن وجمـالهن، وللعروس طبعا نصيب كبير من اهتمام المرافقات في الزينـة والتجمل[50]، أما العريس الذي كان عليه أيضا دخول الحمام قبل الزفة فكان تقريباً يمر بنفس الخطوات الـتي تمـر بهـا العـروس، حيث يـذهب إلى هنـاك بصـحبة أصدقائه وأقربائه ويقومون ببعض الألعـاب لغـرض الترفيـه والتسـلية، كمـا كـان المـرافقين يُخضـعون العـريس لبعض الطقـوس كالتـدليك والتكـييس حلاقة الشعر وتهـذيب اللحيـة لكي يخـرج في كامـل أناقتـه اسـتعداد ليـوم الزفة الذي كان بعـد يـوم واحـد في الغـالب، ومن المناسـبات الاجتماعيـة الأخـرى الـتي يُرتـاد فيهـا الحمـام (النفـاس), فبعض الطقـوس تقضـى أن تُحمل المرأة النفساء بعد وضعها لمولودها بعشرة أيام إلى الحمام، ويُدهن جسمها من قبل بعض النسوة بمواد ومساحيق تُعيد إليهـا بعضـاً من قوتهـا التي فقـدتها في فـترة الحمـل والوضـع وتكسـبها نشـاطاً وصـحة افتقـدت إليهما كثيراً، وهذا ما يحدث أيضا بعد الأربعين فيما يعرف اصطلاحا (بحمام الأربعين) مع الإشارة إلى ما يصاحب ذلك من مظاهر الفـرح والغبطـة من قبل المرافقات بالمناسبة السعيدة، كما كان للحمام أيضـا دوراً في حفلات الختان التي كانت تقام للأطفال فكان الأهل يحملون ابنهم في موكب كبير غالبا ما كان يصاحب موكب العرسان وصـولاً إلى الحمـام, فيُحمم الطفـل قبل الرجوع به إلى البيت حيث تجرى له عملية الختان[51].

الحمام مكاناً للرعاية الصحية:-

إلى جانب أدواره الدينية والاجتماعية لعب الحمام العـام دورا بـارزاً في الرعاية الصحية لأفراد المجتمع, فقد تعـارف الخـبراء المختصـون في هـذا المجال على الفوائد الجمة للحمامـات في الوقايـة والشـفاء من كثـير من الأمـراض على اختلاف أنواعهـا, فالحّمـام كـان ولا يـزال بمثابـة الطـبيب الصامت القادر بجوه الدافئ وبما يُحدثه من عرق غزيـر على مـداواة جـل الأوجاع[52]، فعلى صـعيد الأمـراض الجلديـة أُعتـبر الحمـام والمداومـة على ارتيـاده من أهم الأسـباب المسـاعدة على التخلص من الـبرص والجـرب والحكة التي تؤذي الجلد بشكل خاص[53]، ومن ناحيـة أخـرى فـإن التعـرض للبخـار يسـمح بتفتح مسـامات الجلـد الـتي تخـرج منهـا السـموم القابعـة تحته[54]، وهـو أيضـا مفيـد جـداً لآلام الروماتيزم والمفاصـل والعظـام حيث يساعد على تقويتها وتليين المفاصل لتسهيل حركتها وذلك بمساعدة بعض الطقوس التي تتم داخل الحمامات العامة كـالتكييس والتـدليك يقـوم بهـا

أُناس متخصصون في هذا النوع من العلاج [55]، كما يفيد الانتظام في ارتياد الحمامات العامة في علاج كثير من الأمراض الباطنية مثل عسر البول واحتباسه، وكذلك وُصف الحمام لمن أراد زيادة الوزن وإنقاصه على حد سواء باختلاف ظروف الجسم عند الدخول للحمام، فابن سينا صاحب كتاب القانون في الطب أشاد إلى ذلك تفصيلا حيث قال:" ويقصده من أراد التسمين وزيادة الوزن على أن يكون دخوله للحمام بعد الطعام، وأما من أراد التحليل فيجب أن يدخل الحمام بعد هضم ما في المعدة والكبد "[56].

وللحمام فائدة كبرى تصيب الجهاز التنفسي لدى المستحم، فالتعرض للهواء الساخن الرطب والمشبع بالبخار بدرجة مناسبة يساعد على تنشيط الرئتين واتساعهما وفتح قنوات ومسامات التنفس ولكن بشرط أن يكون ذلك بقدر معين لأن زيادة درجة الحرارة والرطوبة قد يكون لهما تأثير عكسي, فربما يؤدي إلى الاختناق والموت، وتذكر بعض المصادر أن هذا التأثيرات العكسية قد استخدمت بشكل مقصود مرات عديدة للتخلص من أناس غير مرغوب فيهم، كما حدث في حمام اشبيلية في الأندلس عندما قام حاكمها المعتضد 269-289هـ/882-901م بدعوة ثلاثة من رؤساء البربر إلى حفل، وكان غرضه من ذلك التخلص منهم فأدخلهم الحمام وسد الأبواب وأمر برفع درجة الحرارة مما أدى إلى زيادة في نسبة التبخر ونتج عنه اختناق الرؤساء الثلاثة وموتهم, وأيضاً حادثة قتل الخدم السقالبة للخليفة على بن حمود حاكم قرطبة في حمام قصره بنفس الطريقة السابقة عام (408هـ/1017م) [57]، وفي الجانب النفسي يقوم الحمام بدور كبير في الترويح على المستحمين فابن خلدون يذكر أن حرارة الحمام مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته، ولهذا يجد المستحم المنتشي بذلك من الفرح والسرور[58]، كما لما يغب عن مصممي الحمام الإسلامي مراعاة الاعتبارات الإنسانية والنفسية وذلك بتوفير المقومات الجمالية والتي تتمثل في وجود العديد من المرافق مثل البركة الوسيطة والمزودة بشرائح الزجاج الملون الذي يعكس أشعة الشمس إلى داخل الحمام بألوان زاهية مما يبعث في الروح جوا من الراحة والشعور بالاسترخاء النفسي، كما أن للزخارف والنقوش وبلاطات القيشاني المزخرفة على جدران وأرضيات الحمام من الداخل دورا في الترفيه النفسي على المستحمين عبر ألوانها الزاهية والجميلة مما يساعد على بعث روح السكينة والراحة والمتعة لدى رواد الحمام[59].

الحمام مركز للتجميل والزينة:

لقد اعتبرت الحمامات منذ العصور الوسطى بمثابة أماكن للتجميل والزينة تهرع إليه كثير من النساء للعناية بجمالهن وإبراز زينتهن[60]، وغالبا ما اعتبرت هذه العمليات مكملة ضرورية للاستحمام ،خصوصا في

المناسبات الاجتماعية كالأفراح، فقد ارتبط حمام النساء بوجود العديـد من العـاملات الـتي تخصصـن في القيـام بأعمـال الزينـة والتجميـل للسـيدات المستحمات، فالماشطة مثلا تختص في عمليات تصـفيف الشـعر والعنايـة به من خلال عمليات الصـبغ وعمـل التسـريحات والضـفائر، والبلاّنـة تقـوم ببعض الأعمال الخاصة بالعناية بالبشرة من خلال التعطير والـتزيين وإزالـة الشـعر الزائـد من الجسم[61]، وفي أحيـان كثـيرة كـانت السـيدات تـذهب خصيصا للحمـام من أجـل عمليـة التجميـل فقـط دون الاسـتحمام، والنص الذي اوردته (المس تولى) Ms.Tolli وهي زوجة احد الدبلوماسيين الانجلـيز اللـذين أقـاموا في طـرابلس، وأقـامت هي معـه لعشـر سـنوات يمكن أن نعرف منه كل ما يجري داخل الحمـام في هـذا المحـال حيث أوردت ذلـك في كتاب سجلت فيه مشاهداتها داخل طـرابلس لعشـر سـنوات فقـالت : (والحمامات في طرابلس واسعة في العادة ومبنية من الرخام وهي تظـل خاصة بالسـيدات طـوال النهـار وحـتى غـروب الشـمس إذ يـذهبن للـتزين والتجميل وهن يصطحبن جواريهن وخدمهن معهن، وذلك أن الواحدة تحتاج كثير من الخدم بعد أن تستحم فجارية تغسل شـعرها بمـاء زهـر البرتقـال، وثانية تقوم بتجفيفه بـذور خـاص حضـرته من العطـور القويـة ويتـألف من العنبر المحروق والقرنفل والمسـك وجـوزة الطيب، وهي تصـفف شـعرها على هيئة ضفائر صغيرة تبلغ خمسين ضفيرة وهي عمليـة تسـتغرق وقتـاً طويلاً ، كما أنها مضنية فعلا يزيد من إزعاجها الآم نتف الشعر النـابت على نحـو غـير سـوى ثم صـبغ الرمـوش، وتزجيـة الحـواجب الـدقيق، والتكحـل بمسحوق اسود على مراود من الفضة أو الذهب) [62].

الأهمية الاقتصادية للحمامات العامة :

تعد الحمامات من المنشآت الحيوية التي تُـدر ربحـاً منتظمـاً ووفـيراً على مالكيها، فقـد كـان إقبـال العامـة عليهـا دائم وكـان يشـهد زيـادة في بعض المواسم التي تقام فيها المناسبات الاجتماعية مما يجعل المـردود المـادي لها أعلى في تلك الفترة، فرسوم الدخول الـتي تـدفع من قبـل المرتـادين وإن كانت زهيدة أحيانا فإن انتظامها ودوامها كان يعود بالنفع على صـاحب الحمام أو على المنشـآت الأخـرى الـتي أوقـف عليهـا الحمـام، ممـا جعـل أصحاب الأمر من أمراء وسلاطين وعليه القوم والميسورين يتنافسون في إنشاء الحمامات العامة والاهتمام بها ووقفها أحيانا وقفاً أهلياً أو خيريا على أغراض البر والتقوى[63]، وكان لموقع الحمام دو كبير في إيراداتـه الماليـة، فوجوده قرب المراكز التجارية التي تزدحم بالناس لم يـأت بشـكل عفـوي لأن ذلك يزيد من عدد زبائنه وبالتالي مردوده المادي، فتلـك الأمـاكن على اختلافها مناسبة لشـرائح عـدة، والنسـاء مثلا كن يقصـدن الحمامـات الـتي تجنبهن الدخول إلى الأسواق وأماكن الازدحام، وتلك الحمامـات الموجـودة في مداخل المدن دائمـا مـا كـانت تلاءم الغربـاء والقـادمين الجـدد والـتي

تغريهم بدخولها دون اللجـوء بهم إلى دخـول المحلات أو الأحيـاء السـكنية، كما أن الموجود منها إلى جانب المساجد أو المحلات مناسـب جـدا للباعـة والتجار وذلك للاستمتاع بها بعد يوم طويل وشاق في العمل[64].

وقد خضـعت الحمامـات لرقابـة صـارمة من أعلى الجهـات السياسـية في الدولة الإسلامية، حيث أوكلت تلك المهمة أحيانا لصاحب الشـرطة حـولت فيما بعد إلى المحتسب، وكـانت هـذه الرقابـة تشـتمل إلى جـانب مراقبـة عمل الحمام على عدة جوانب أخرى أهمها وضع الضـرائب المناسـبة على الحمامـات الـتي يملكهـا الأشـخاص ملكيـة خاصـة، والإشـراف على سـد احتياجات الحمام من الإمدادات المائية وملاحق الصرف الصـحي لهـا، كمـا كـان من مهـام المشـرفين خصوصـا بالنسـبة لحمامـات العامـة المملوكـة للدولـة والموقوفـة على أعمـال الـبر وعلى منشـآت أخـرى الصـرف على أعمال الإصلاح والصيانة وتجديد الأثاث والفرش بالإضافة إلى تحديـد قيمـة الرواتب التي تُدفع للعاملين والقائمين على الحمام، والجـدير بالإشـارة أن العمل في الحمام كان أحيانـاً يخضـع لكثـير من الضـوابط والقـوانين الـتي نظمتها ما يعرف بــ(طائفـة الحمـامين) الـتي عُـرفت في كثـير من المـدن العربية، وكانت بمثابة رابطة تنظم عمل الحمامات العامة ولها غالباً رئيس أو شيخ كان بمثابة المرجعية، وهو الذي ينظم عملية الانتماء لهذه الطائفـة وفق شروط معينة، وقد خففت هذه الطائفـة أعبـاء المحتسـب بالإشـراف على الحمامات وذلـك بـأن تـولت هـذه المهمـة بوضـع شـروط ومخالفـات تعاقب كل من يُخل بعمل هذه المنشأة لضـمان تحقيـق العنايـة والاهتمـام بالنظافة وصحة الأفراد[65].

أهم النتائج :

1- الحمّامات العام هي أحد أنواع العمائر ذات المقصد الترفيهي والـتي ظهرت نتيجة غنى الشعوب وتحضرها، فكانت أحد مقاييس الازدهـار الحضاري في كثير من الأحيان.
2- فكرة إنشاء الحمّامات العامّة فكرة مُوغلة في القـدم سـبقت قيـام الحضارات الكلاسيكية بوقت طويل، حيث وجدت أقدم نماذجها على سواحل بحر إيجه وتعود الى ما بين 3000-1200 ق.م .
3- للحضارة الرومانية الفضل في تطوير الشكل المعمـاري والـوظيفي للحمّامات العامة بعد مـا ورثوهـا عن الحضـارة الهلنسـتية، فهم من اكتشفوا تقنية توليد البخار عن طريق تسخين المياه أسفل الغـرف، وهم من تحكمـوا بدرجـة الحـرارة الـتي نتج عنهـا التوزيـع الـوظيفي لمرافق الحمّام الرئيسية، وهم من جعلوا الحمّام العام يتعـدى دوره الصحي ليكون منشأةً متكاملة متعددة الأغراض والمنافع.
4- في بدايات الحضارة الإسـلامية لم يـألف المسـلمون فكـرة الحمّـام نتيجة للعديد من الأسباب منهـا مـا هـو ديـني ومنهـا مـا يتعلـق بقلـة إمدادات المياه التي تتطلبها الحمّامات العامّـة بغـزارة، الأمـر الـذي

أصبح متاحاً بتوسع الدولة مع تغير الفكر المعماري برمته للحضـارة الإسلامية.

5- العصـر العثمـاني هـو ذروة تطـور الحمّامـات العامّـة من الجـانبين الوظيفي والمعماري نظراً لأن العمارة العثمانية كانت البوتقـة الـتي انصهرت فيها كل التقاليد المعمارية السابقة لتخرج لنا أسلوباً رائعـاً للتقاليد المعماريـة في كـل أنـواع العمـارة بمـا في ذلـك الحمّامـات العامّة.

6- تعتبر نماذج الحمّامات العامّة التي أُنشأت في تركيـا هي الملهمـة – بنسبة كبيرة – للحمامات الـتي أنشـأت في معظم الأقـاليم العربيـة التابعة لسلطة الدول العثمانية طيلة أربعة قرون من الـزمن تقريبـاً، بيد أن ذلك لا يلغي وجود الكثير من التأثيرات المحلية التي فرضـتها عديـد الأسـباب منهـا على سـبيل المثـال لا الحصـر التقاليـد البنائيـة المحلية ومواد البناء وطبيعة المجتمعات المحليّـة الى غـير ذلـك من الأسباب.

7- انسجاماً مع طبيعة المجتمـع في المدينـة الإسـلامية فقـد تم تكـييف الحمّامـات العامـة لتقـوم بالعديـد من الوظـائف الـتي تجسـد مبـدأ التقارب والتكافل الاجتماعي، فإلى جـانب دوره في تأكيـد الطهـارة والـتي هي أسـاس جـل الفـرائض في الـدين الإسـلامي فقـد لعب الحمّام دوراً اجتماعياً وصحياً واقتصادياً الى غير ذلك من الأدوار.

الإشكال

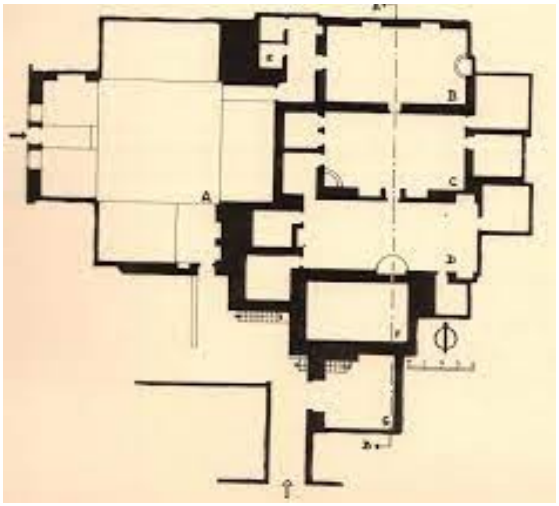

شكل رقم1 (أ)
مسقط أفقي لحمام الخياطين بدمشق

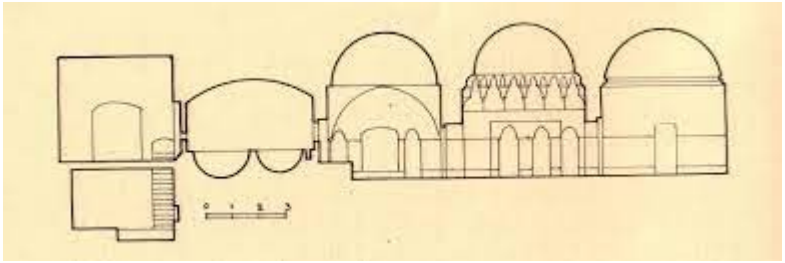

شكل رقم 1 (ب)
مقطع رأسي لحمام الخياطين

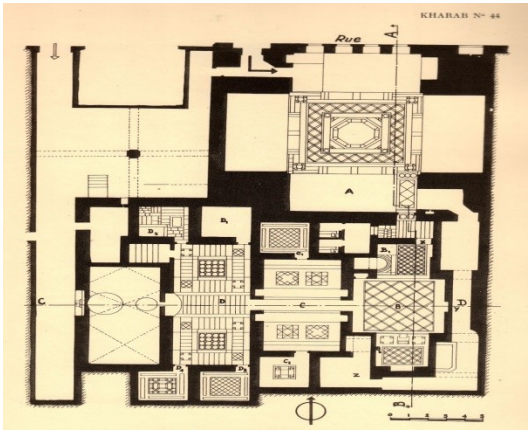

شكل رقم 2
مسقط أفقي لحمام الخراب بدمشق

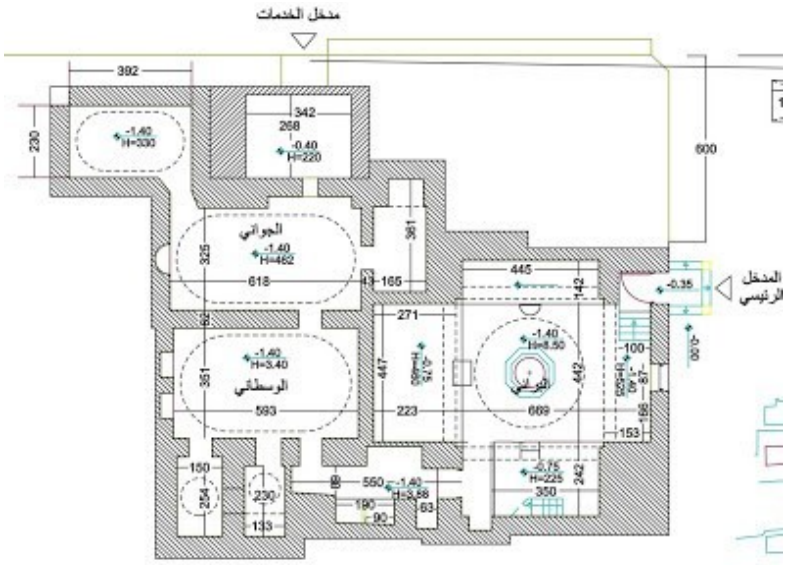

شكل رقم 3
حمّام العظم (قصر العظم)

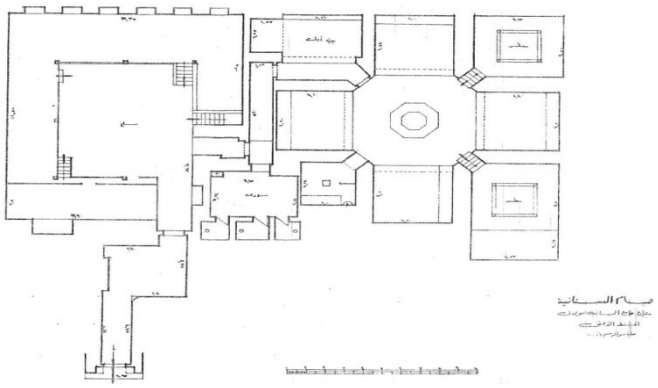

شكل رقم 4
حمام سنان باشا بالقاهرة

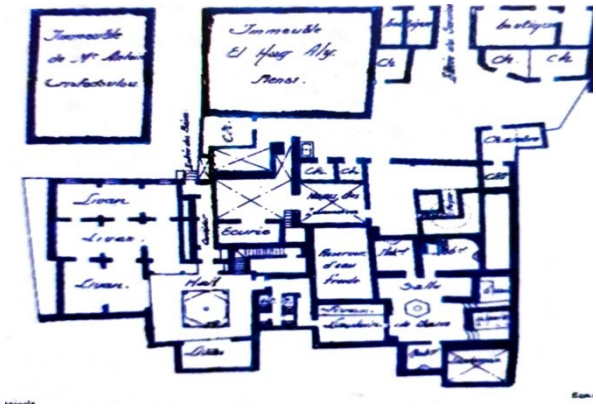

شكل رقم 5
مسقط أفقي لحمام الذهب (الإسكندرية)

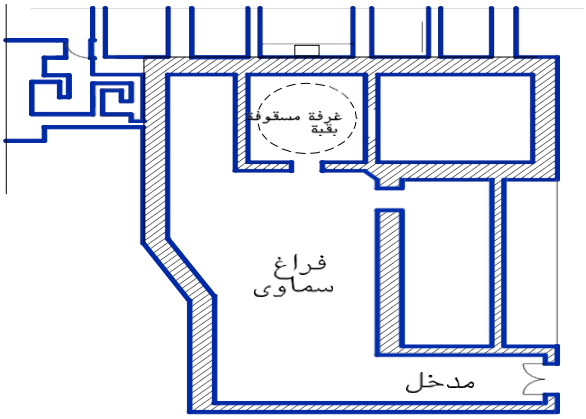

شكل رقم 6
حمام علي بيك بجرجا (صعيد مصر)

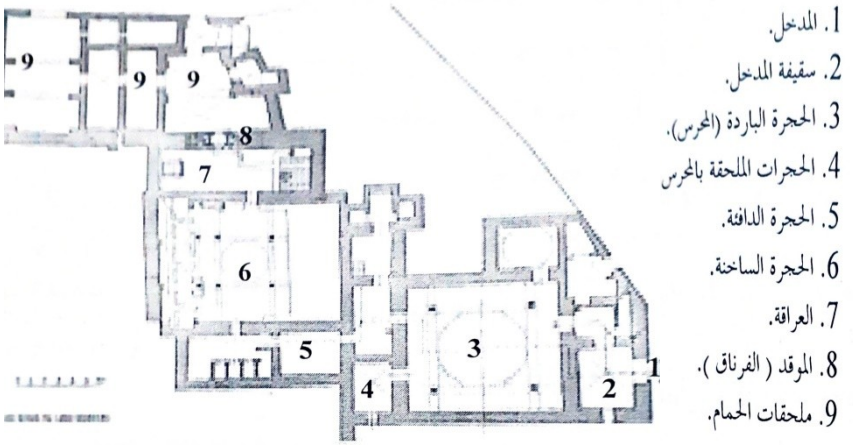

شكل رقم 7
مسقط أفقي لحمام صاحب الطابع (تونس)

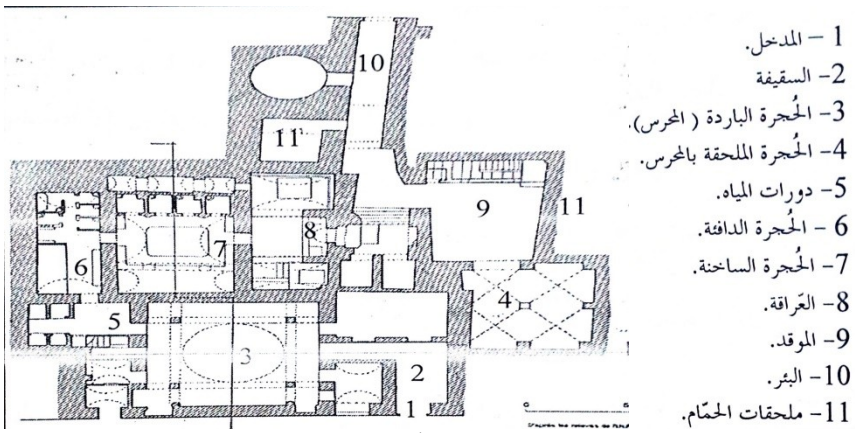

شكل رقم 8
مسقط أفقي لحمام القشاشين (تونس)

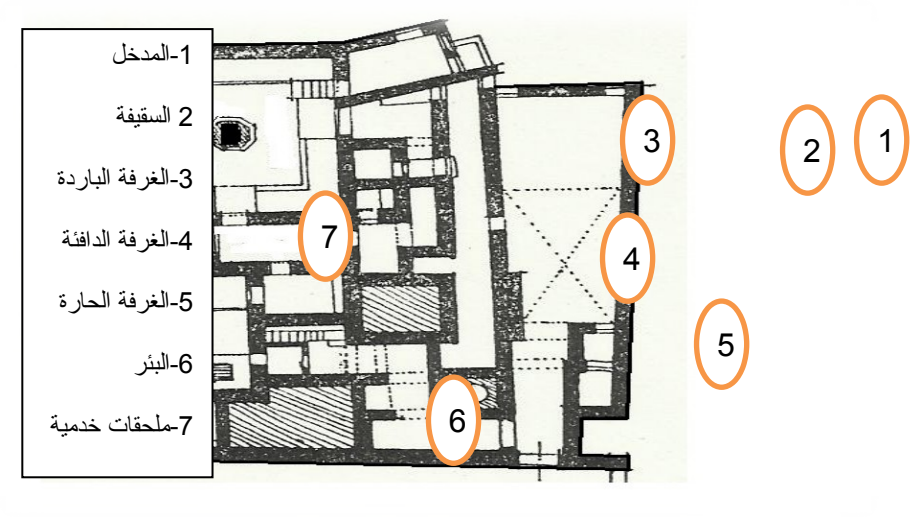

شكل رقم 9
مسقط أفقي لحمام درغوث (طرابلس)

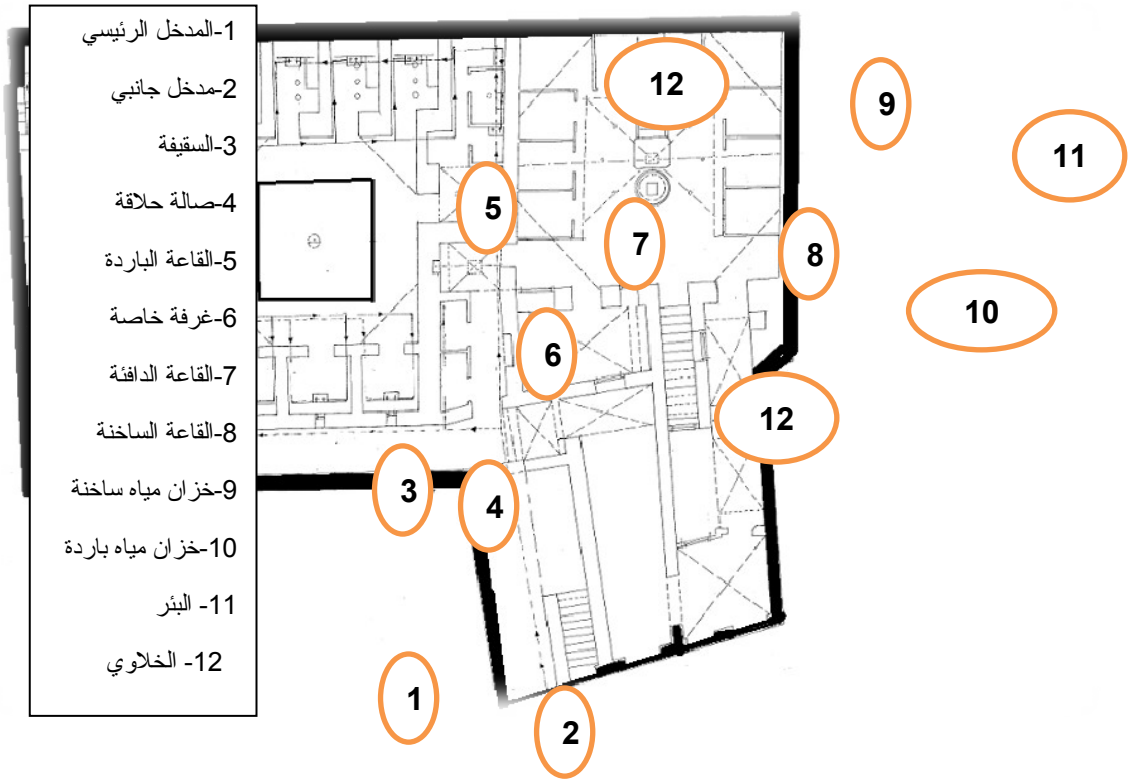

شكل رقم 10
مسقط أفقي لحمام الحلقة (طرابلس)

هوامش البحث

[1]()القرآن الكريم، سورة محمد، الآية15
[2]()عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولى ، القاهرة ،2000م، ص84.
[3]()منير البعلبكّي، موسوعة المورد، دار العلم للملايين، مج 2، بيروت، 1980، ص39.
[4]()محمد الفندى ، دائرة المعارف الإسلامية ، دار المعرفة ، بيروت مج 8، د.ت ، ص 68
[5]() محمد غربال – الموسوعة العربية الميسرة ، دار العلم للملايين ، بيروت -1959م-ص735
[6](6)سليمة موساوى- الحمامات الجزائرية، دائرة الآثار الإسلامية ، الجزائر-1995.
[7](7)أحمد صقر، مدينة المغرب العربي في التاريخ، دار الكتاب، بيروت، د.ت، ص162.
[8](8) J.Carcopion, La vio quotidienne a roma, London,1960,p293.
[9](9) باسيليو بابون مالدونادو، العمارة الأندلسية عمارة المياه، ت على إبراهيم على المنوفي ، تقديم : محمد حمزة إسماعيل الحداد، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ،2008-ص327
[10](10) المرجع السابق، ص238-239.
[11](11)المرجع السابق، ص240.
[12](12) ويل ديورانت، قصة الحضارة، ج1، مج 3، بيروت، د.ت، ص328.
[13](13)- Cammaille,las aqueducs des Bains ther mes dons antiquite, g.p maisonneuve, g larose, s.a.paris, 1976, p22 . .
[14](14) عايدة عارف، مدارس الفن القديم، دار صادر، بيروت، 1970م، ص349.
[15](15) حمامات الإسكندرية في القرنين التاسع عشر والعشرين، تقديم:محمد عوض، إعداد:محمد علي عبدالحفيظ، مركز دراسات الإسكندرية وحضارة البحر المتوسط، مكتبة الإسكندرية، 2007م، ص ص33-41.
[16](16) محمد عيسى، مدينة صبراته، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1978م، ص ص54-61.
[17](17) أقيانوس هو أول اله للمياه عند الرومان، وهو ابن السماء والأرض بحسب الأساطير الرومانية .
[18](18) محمد عيسى، مرجع سابق، ص60-61 .
[19](19) محمود زين العابدين، الحمامات :عودة الى الماضي، مجلة دار الحياة، العدد200، دائرة المنشورات، حلب، 2001م، ص ص10-16 .
[20](20) خالد عزب، فقه العمارة الإسلامية، دار النشر للجامعات، القاهرة، 1997م، ص87.
[21](21) المرجع السابق، ص87.
[22](22) أول مدينة أنشأت في الإسلام بعد المدينة المنورة هي مدينة البصرة وذلك سنة 16هـ، على يد القائد عتبة بن غزوان، أما مدينة الكوفة فهي الثانية وأنشأت بعد عدة أشهر من البصرة ،على يد القائد سعد بن أبى وقاص. أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر، دمشق ، 1973، ص 30
[23](23) زينب صادق علي السمكري، سومر، المؤسسة العامة للآثار، مج44، ج1-2، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1985-1986م، ص141-142.
[24](24) عاصم محمد رزق، مرجع سابق ،ص85.
[25](25) إبراهيم خورشيد، دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع، ج13، 1998م، ص4307.
[26](26) أصلان أوقطاي آبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية ، إستانبول، 1987م، ص185 .
[27](27) المرجع السابق، ص ص187-189 .
[28](28) سنان باشا (1489-1588م): كان أحد الجنود الإنكشارية، ترقّى في المناصب وظهرت براعته في العمارة والتصميمات الهندسية، صمم العديد من المباني والتجمعات السلطانية، توفي عن عمر ناهز التسعة وتسعين عاماً.
[29](29) الصادق النيهوم، سلسلة تاريخنا، دار التراث، طرابلس، 1978م ، ص129 .
[30](30) أصلان أوقطاي آبا، مرجع سابق، ص231.
[31](31) المرجع سابق، ص231.
[32](32) ابراهيم خورشيد، مرجع سابق، ص ص4319-4320.
[33](33) أصلان أوقطاي آبا، مرجع سابق، ص 213 .
[34](34) تحليل شخصي للباحث من خلال الإطلاع على بعض المخططات الخاصة بالحمامات العثمانية في تركيا وبعض دول أوربا التابعة لها آنذاك .
[35](35) منير كيّال، الحمامات الدمشقية، مطابع ابن خلدون، دمشق، 1986م، ص ص103-117.
[36](36) محمد حمزة الحداد، بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية، الكتاب الأول، دار نهضة الشرق ،القاهرة، 2000م، ص268.
[37](37) محمد حمزة الحداد، موسوعة العمارة الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1997م، ص61-62.
[38](38) المرجع السابق، ص56 .

[39](39) حمامات الإسكندرية، مرجع سابق، ص ص50-55 .
[40](40) محمد عبد الستار عثمان، جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني، مجلة دراسات أثرية إسلامية، المجلس الأعلى للآثار، مج3، القاهرة، 1988م، ص234 .
[41](41) المرجع السابق، ص278 .
[42](42) خالد عزب، مدن مصر ذات التبادل التجاري، دار المعارف، ب.ت، ص ص36-39.
[43](43) خورشيد، مرجع سابق، ص4322 .
[44](44) عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م، ص51. أيضاً : سليمة موساوي، الحمامات الجزائرية، مرجع سابق، ص145 .
[45](45) تيسير بن موسى، المجتمع الليبي في العصر العثماني، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1988م ، ص364.
[46](46) مصطفى جودة، من طرابلس الى فزان، دار النشر والتوزيع، طرابلس، 1981م، ص20.
[47](47) عبد الكريم أبوشويرب، الحمامات الإسلامية، مجلة آثار العرب، العدد الخامس، الدار الجماهيرية للنشر، مصراته، 1992م، ص ص 81-87 .
[48](48) صلاح أحمد البهنسى، طرابلس الغرب دراسات في التراث المعماري والفني، دار الأفاق العربية، القاهرة ، 2004، ص 84
[49](49) جمانة الهاشمي ، حمام النسوة الحلبي ، جريدة دار الحياة ، العدد العاشر ، حلب ، ص164.
[50](50) محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك، رسالة دكتوراه مقدمة الى قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة أسيوط 1980، ص164 .
[51](51) المرجع السابق، ص1-12.
[52](52) ابراهيم خورشيد، مرجع سابق، ص5327.
[53](53)حمامات الإسكندرية، مرجع سابق، ص21.
[54](54) محمد عبد الستار عثمان، فقه عمارة الحمامات في العصر العثماني، مؤسسة التميمي، تونس، 2000، ص279 .
[55](55) باسيليو بوبان مالدونادو ، مرجع سابق، ص383
[56](56) ابن سينا ابو الحسن على ، القانون في الطب ، ج1 ، ب ت، ص 104.
[57](57) محمد خلّاف، قرطبة الإسلامية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ص87-88.
[58](58) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط5، دار الرائد العربي، بيروت 1982م ، ص63-64 .
[59](59) أبو صالح الألفي، الفن الإسلامي أصوله وفلسفته ومدارسه، دار المعارف، بيروت، ب.ت، ص12 .
[60](60) حمامات الإسكندرية، مرجع سابق، ص21.
[61](61) صلاح أحمد البهنسي، طرابلس الغرب دراسات في التراث المعماري والفني، دار الآفاق العربية، القاهرة ،2004م ، ص85.
[62](62) ريتشارد تواللي،عشر سنوات في بلاط طرابلس،ت عمر الديراوي، دار المحدودة، لندن، 1984،ص112.
[63](63) حمامات الإسكندرية، مرجع سابق، ص17 .
[64](64) محمد عبد السيد، نحو تأصيل العمارة الإسلامية، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية والتعمير، تونس، 1988م، ص49.
[65](65) ليلى رجب، من أجل بناء منهجية لدراسة المعمار العربي الإسلامي، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة، تونس، 1987م، ص24